الضمير

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

غامض في لفظه غموضه في معناه، ومستتر رغم ما يبرز من آثار؛ هو أقرب الأشياء منا وأزمها لنا، بل يكاد يكون كل شيء فينا: «والمرء بأصغريه قلبه ولسانه» بيد أنا إن حاولنا توضيحه توارى بالحجاب وأمعن في الاستتار والخفاء. نؤمن بوجوده دون أن نراه أو نفهم في وضوح حقيقته؛ وكيف ننكره وفي إنكاره إنكار لأنفسنا وهدم للدعامة الأولى من دعائم شخصيتنا؟ يأمر فيطاع، وينهى فيستمع له، ويسر ويحزن، ويخالط عواطفنا وأحوالنا النفسية على اختلافها؛ يعقد محكمته في أسرع من لمح البصر، ويصدر أحكاما غير قابلة للنقض والابرام. لذلك اتجه اليه الواعظ في وعظه؛ وناداه رجل الدين في نصحه، وجعله الأخلاق أساساً لدرسه، وتولاه عالم النفس بالبحث والتحليل

يغلب على الظن أن العرب لم يستعملوا كلمة «ضمير» بمعناها الخلقي والنفسي الذي اصطلحنا عليه الآن؛ فانهم أطلقوها على القلب والباطن والسريرة فحسب. وهذا المعنى، وإن كان يقرب من العرف الحاضر، متميز منه تمام التميز. وفلاسفة الاسلام ومتصوفوه، برغم تحليلهم الدقيق لبعض العواطف النفسية كالعشق والشوق والندم والتوبة لم يجر كلمة «ضمير» على لسانهم إلا في دوائر تختلف كثيرا عما نحن فيه، ويظهر أن العرب قد استعاضوا عن هذه الكلمة بلفظة «زاجر» التي تؤدي معناها بعض الأداء: «من لم يكن له من نفسه زاجر، لا تنفعه الزواجر» فكلمة «ضمير» بمدلولها الفلسفي وضع حديث واستعمال يرجع به العهد فيما نعتقد، إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين بدئ في ترجمة كلمة conscience الأجنبية؛ وهذه الترجمة — وإن تكن صادقة في جملتها — مثار غموض واشتباه؛ لأنها تعبر عن الضمير الخلقي والنفسي بلفظ واحد. إلا أن اللغة الفرنسية وقعت في هذا الغموض من قبل واستعملت لفظاً مشتركا للدلالة على الضمير من حيث مظاهره الخلقية وأحواله النفسية. وقد تنبه الألمان والانجليز إلى هذا فخصوا الضمير النفسي بلفظ يميزه من الضمير الخلقي، واصبح لعالم النفس كلمة يدل بها على الضمير غير تلك التي يستعملها الأخلاقي وما أجدر كل اصطلاح بأن يوضع له لفظ خاص يناسبه[٢]؛ إلا أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه التفرقة اللفظية إنما يراد فقط فصل العلوم بعضها عن بعض وقصر كل فن على مصطلحا معينة. وإلا فالواقع يشهد أن الضمير الخلقي هو الضمير النفسي ملحوظاً فيه معنى الخير والشر. فليس في الانسان ضمير يفصل أحدهما في الأحكام الخلقية ويتولى الآخر الأحوال النفسية لكل منا ضمير واحد قد تتنوع أسماؤه بتنوع مظاهره ووظائ

لم يعن الأغريق بموضوع الضمير ولم يدرسوه الدراسة اللا به لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية النفسية، ذلك الأخلاق كانت تعتمد عند فلاسفتهم الأول على أساس اجتماع فأفلاطون كان يتنزى عن شقاء الأفراد بما كان يرجو من سعا الجمعية؛ وارسطو لا يكاد يفصل الحياة الخلقية من الحيا السياسية. نعم إن الأبيقوريين والرواقيين قد نحوا بالأخلاق منحى فرديا، وحاولوا أن يؤسسوا سعادة الفرد على الفرد نفسه؛ ولكن ذوو نزعة مادية تتنافى مع التحليل الروحي للضمير. ومن الناحية السيكلوجية نلاحظ أنه فات الأغريق، بل القدامى عامة يتميزوا وحدة الظواهر النفسية، التي هي أثر من آثار الضمير وإن من جهل هذه الوحدة أو قال بنظريات تناقضها لا يستطيع أن يفهم الضمير على وجهه الصحيح. وفوق هذا فانهم كا يخلطون بين الضمير وبعض الأحوال النفسية؛ فأفلاطون م لا يفرق بينه وبين المعرفة، وأصحاب الرواق يطلقونه على معر الحق والباطل. وقد بقي أمر الضمير مهملا إلى أن جاء صوفيو القرون الوسطى من مسيحيين ومسلمين فأعاروه جانباً من العنا والدرس. والتصوف، وهو علم القلوب، لا يمكنه أن يغ مشكلة الضمير وينسى ركناً تقوم عليه المناجاة الروحية. لذ نسمع رجلا كأبيلارد بين المسيحيين يحدثنا عن الضمير وأثره الأعمال الخلقية؛ كما نرى الغزالي مثلا بين المسلمين يشرح مرا

(١) نعلم أن الفرنسيين يستعملون من غير تمييز كلمة conscience في أبحاثهم الخلقية والسيكلوجية، وقد يضيفون اليها أحياناً وصفاً مخ فيقولون: conscience morale et conscience psychologique
أما الألمان والانجليز فيسمون الضمير الخلقي: Gewissen, conscience
والضمير النفسي: Bewusstsein, consciousness

(٢) قد يسمى الضمير النفسي الشعور، ونعول في هذه التسمية ما ي على وظيفته وإن كانت لا تبين تماما حقيقته

النفس وقوة المحاسبة التي يمكن أن تنطبق على الضمير بمعناه الحديث . غير أن هذه المحاولات في جملتها محدودة وجزئية . وإلى رجال العصور الحديثة يرجع الفضل في شرح موضوع الضمير ومنحه ما يتطلب من عناية ومجهود . وتكاد تكون المدرسة الأبيقوسية أول من تنبه إلى هذا الجانب الهام من النفس وإلى أثره في الأخلاق . ثم تبعتها مدارس أخرى اختفت رأيها أو ردت عليها ، إلى أن جاء وليم جيمس وبرجسون فدرسا الضمير دراسة نفسية قضت على كثير من النظريات القديمة ، وغيرت مجرى التفكير في علم النفس إلى حد كبير . ولم يفت الاجتماعيين المعاصرين أن يعرضوا لمشكلة الضمير ويوضحوها على ضوء البيئة والظروف الاجتماعية . وهذه الدراسات مجتمعة ترمي إلى تحديد ماهية الضمير وحقيقته ، وبيان أصله وطبيعته ، وتوضيح قيمته ووظيفته ، ثم إلى اثبات تنوعه بتنوع الأفراد والجماعات ، وتطوره تبعاً لاختلاف العصور والأجيال

في قرارة نفوسنا وحيث تتكون أفكارنا وتعد أحكامنا ، هناك رقيب ملازم يشهدها ويقفنا عليها أولا فأولا ؛ هذا الرقيب هو ضميرنا والشعور الروحي الذي نحس به على أثر أية حركة من حركاتنا النفسية ، والالهام المستمر الذي ينقل إلينا كل ما يجول بالخاطر . فالمرء حين يفكر يشعر في الوقت نفسه بما يصنع ، ويدرك أن تفكيره من عمله وقطعة منه . وكذلك شأنه حين يفارق أو يوازن أو يتذكر معلومات قديمة أو يقضي في أمر بقضاء ما ، أو يسر أو يحزن ، أو يحب أو يبغض . وشعور الانسان بتفكيره وإدراكه لخفايا قلبه ليس إلا معرفته لنفسه ووقوف روحه على ما تعمل . وعلى هذا فالضمير جزء لا ينفصل من الظواهر النفسية وأساس لكل أعمالنا الباطنية . هو الشخصية في صورتها البسيطة المجردة ومبعث النور الأول في الحياة العقلية . وخطأ أن نعده قوة مستقلة ومتميزة من الأحوال النفسية كالذين تتميز من الشيء المرئي . فقد انقضى الزمن الذي كان يقال فيه بتقسيم النفس إلى قوى منفصلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص . ولسنا في حاجة لأن نقرر هنا أن في الانفعالات مثلا قدراً من التفكير لا يصح انكاره ، كما أن الجانب الفكري للانسان في أرقى صوره مشوب ببعض العواطف والميول . على أن القول بالقوى إن صح تصوره بالنسبة لبعض مظاهر النفس ، فواضح عدم انطباقه على الضمير الذي هو الشكل العام ونقطة الاشتراك والصورة الرئيسية لكل الأعمال العقلية . والمدرسة الأبيقوسية وإن كانت من أول من عني بموضوع الضمير بين المحدثين أساءت من ناحية أنها عدته قوة قائمة بذاتها وشبهته بأحد النظارة يشهد رواية الحياة النفسية دون أن يقاسم فيها بنصيب (١)

وإذا كان الضمير شعور النفس بما تعمل ، فسهل أن نتميز في هذا الشعور درجات بعضها أوضح من بعض . ففي اللحظات التي بين اليقظة والنوم نشعر بما يجري في نفوسنا شعوراً مبهماً غير محدود ؛ والأحلام والرؤى تنفصل من غير شك بالضمير في أغمض صوره ، أو إن شئت فسمها مرحلة العقل الباطن ، فان جاوزنا هذه المرحلة وجدنا أحوالا نفسية واضحة بعض الشيء إلا أنها سريعة وغير متمركزة ، وما ألصق هذه الأحوال بالأعمال المادية والأمور المألوفة ؛ فالضمير يدركها دون أن يقف أمامها طويلا . وبعد هاتين المرحلتين نصل إلى درجة فيها تفكير وروية وتذكر وانتباه وبحث ومجهود . وهنا تبدأ المعرفة الحق ويدرك الضمير عمله في وضوح . وعلماء نفس الطفل المعاصرون وعلى رأسهم كلاباريد (Claparéde) وبياجيه (Piaget) قد خصوا هذه المرحلة بقدر كبير من العناية ، وبينوا كيف يخطو الناشئ نحو إدراك نفسه وتكوين معلوماته ؛ ثم تجيء أخيراً مرحلة التفكير الانساني في أسمى صوره ، حيث تعرض المشاكل العلمية والفلسفية ، ويجهد الانسان نفسه في تفهمها وقلبها على وجوهها رجاء أن يصل إلى حل واضح مقنع ، وما هذه المرحلة إلا امتداد لسابقتها وصورة مكبرة لها ؛ والأبحاث العقلية في جملتها شك للضمير ، ومبعث نضال نفسي مستمر يراد به الوصول إلى الأفكار الجلية النيرة

يزداد فهمنا للضمير إذا بينا الخصائص التي تمتاز بها مظاهره ؛ وقد عني جيمس وبرجسون بشرح هذه الخصائص وتوضيحها التوضيح الكافي ؛ وأول شيء نلحظه في الظواهر النفسية هو اختلاطها وتشعبها ؛ فلا نكاد نجد أنفسنا أمام ظاهرة واحدة منعزلة ، بل دائماً أمام مجموعات من أحوال نفسية مختلفة ، أو كما يقول جيمس أمام حقول اكتسى بساطها نشق الأزهار

(١) Th. Reid. Essai sur fac. intell., III,2.

والألوان (fields of consciousness) فى ظاهرة نفسية واحدة ، تا[ت] [ا]ت متنوعة ، وذكريات قديمة ، وعادات ثابتة ، و[ا]ر عديدة ، وأحكام وتعليلات ، وموازنات لا حصر لها ؛ وهذه الأحوال النفسية كالأمواج الزاخرة تجرى وتتغير من غير انقطاع ؛ ومن هنا جاء تعبير جيمس المشهور : يثار الفكر أو يثار الضمير[1] . فاحساسنا بشىء فى حال اليقظة يختلف عنه فى حال النوم ؛ وإدراكنا لأمر ونحن متعبون يختلف عن إدراكنا له ونحن مستريحون ؛ وشعور هذه اللحظة لا يتكرر مرة أخرى فى نفس الظروف والمناسبات التى اقتضته ، وإن بدا تكراره لم يمسّ ذلك المظهر العام ؛ أما التفاصيل والجزئيات فمختلفة لا محالة ، وكأن حركة التفكير كنهر جار تتابع موجاته إلى ما لا نهاية دون أن تعود موجة سيرتها الأولى ؛ والفكرة الواحدة المستمرة التى تخطر ببالنا من حين لآخر دون تغيير أو تبديل أمر خيالى وبعيد عن الحقيقة[2] . فنحن نحس الآن على صورة خاصة لن تستمر فى اللحظة التالية ، وما دمنا أحياء فنحن عرضة للتغيير ، وما أصدق بسكال حين يقول :

« الزمن يشفى الآلام والأحقاد لأنا متغيرون ولا نحتفظ بشخصية واحدة ، فلا المسىء ولا المساء اليه يبقيان كما كانا[3] » بيد أن القول بأن ظواهر النفس فى حركة وتغير مستمر ليس معناه أن فى تيار الضمير انفساماً أو انفصاماً أو تبايناً . فظواهر النفس فى حركتها تدور حول نقطة واحدة وتتصل بأساس ثابت ؛ وحياتنا الروحية فى هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى وحدتها . وعلى هذا فالحاضر من أحوالنا النفسية يحمل فى طياته الماضى ويمد المستقبل ، وفى النفس حركة فى انفصال وتغير فى ارتباط . ومثل الحياة العقلية فى هذا مثل قطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقا . وما ذاك إلا لأن أحوال النفس جميعاً متصلة بشخصية معينة ، ومنجذبة نحو مركز واحد ، ومنبعثة من شمس الضمير الوحيدة . وأوضح شىء فى عمل النفس أنه يستلزم فاعلا ؛ ففكرة ما إما أن تنسب إلى أو إليك أو إلى زيد من الناس والفكرة التى لا أب لها لا أصل لها ولا وجود ؛ على أنها وجدت فلا سبيل إلى تعرفها والتأكد منها ، لأن ما نتبادله أفكار إنما هو عمل أشخاص معينين محدودين .

من خصائص مظاهر الضمير التى ألمعنا بها سراعا تا بطلان المذهب الذرى الذى يزعم أن الحياة العقلية بأسرها تر الى جملة أفكار بسيطة التقت وارتبطت ونتجت عنها أفكار أخ مركبة ؛ ومجموع هذه وتلك مسود بقانون تداعى المعا فالظواهر النفسية تتلخص فى جملة وحدات وضع بعضها مجا بعض ، وفى مجرد انضمامها ما يكفى لتكوين حياة عقلية . ت هى نظرية لوك ومن جاء بعده من رجال المدرسة الانجليزية أم هيوم وميل وبين وسبنسر . ولا يبعد عن هذه النظرية كث ما قال به كوندياك الفرنسى من أن الروح ليست إلا مجموعة ص حسية توزعت الى طوائف عدة فنشأت عنها القوى النفس المختلفة . وكلتا النظريتين تهدم فكرة الضمير من أساسها ، (ترى فى النفس شيئا سوى ما يمليه الحس . لذلك قام فى وجو الأبقوريون من جانب ، ومين دى بيران من جانب آخر ، مثبت أن فى الروح حياة وقوة تجاوز المدركات الحسية ، ولولا ه القوة وتلك الحياة ما نظمت آثار الحس ، ولا نتجت عنها أفكا مستقيمة . هناك روح ، هناك نفس ، هناك شخصية ، أو هن شعير ، سمه ما شئت ، والمهم أن الظواهر العقلية ليست مج أوضاع لصور حسية ، أو لوحدات متحجرة لا حياة فيها ولا تستطيع بالأولى أن تبعث الحياة فى غيرها . وأعمال بينيه ومدرسة فورتسبورج الالمانية وجيمس وبرجسون فى الخم سنة الأخيرة قائمة على شرح هذا الرأى ونصرته

والآن وقد اتضح الضمير فى مظهره النفسى ، يجدر بنا أن نفرق بينه وبين الضمير الخلقى ، أو أن نحدد بعبارة أدق مهمة من الناحية الأخلاقية . فى حين أن الضمير النفسى يقفنا على ما يجرى فى داخلنا ، ويشاطر فى الظواهر العقلية على اختلافها يعنى الضمير الخلقى باصدار الأوامر الصالحة والحكم على الأعمال الانسانية . فاذا ما تعلق بالمستقبل بدا أثره كصوت خفى يأمر وينهى ، وإذا حكم على الماضى صحبت حكمه عواطف كثيرة من سرور وألم . « فصوت الضمير » هو ذلك النداء الخفى والوحى

(١) stream of thought or stream of consciousness.

(٢) W. James, Principles of Psychology I, pp. 231 ss. — H. Bergson, Evolution créatrice, pp. 2s s.

(٣) Pascal, Pensées, frag. 122.